وقفة

عبدالنبي الشعلة abdulnabi.alshoala@albiladpress.com

مع الجواهري في مقهى سلافيا.. حين يصبح الحنين قضية أمن وطني

شملت جولتي الصيفية في أوروبا هذا العام، برفقة العائلة وعدد من الأصدقاء، زيارة مدينة براغ، عاصمة جمهورية التشيك، وهي مدينة قرأت كثيرًا عن تاريخها ومعالمها الحضارية، من القلاع والقصور والجسور والكنائس والأبراج، إلى أحيائها القديمة، وفي مقدمتها الحي اليهودي الذي يحتضن أقدم معبد يهودي لا يزال مستخدمًا في أوروبا، وإحدى أقدم المقابر اليهودية الباقية فيها، شاهدًا على فصول صعبة من الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في القارة الأوروبية، ولا يزال الفلسطينيون، في مفارقة تاريخية قاسية، يدفعون اليوم ثمن جرائم لم يرتكبوها.

كنت أتطلع إلى زيارة هذه المعالم، ولذلك خصصت لبراغ أسبوعًا كاملًا، لكن المكان الذي استأثر باهتمامي أكثر من غيره كان مقهى "سلافيا" العريق، المطل على نهر فلتافا الجميل، والمواجه تقريبًا لمبنى المسرح الوطني. افتُتح المقهى بالعام 1884، وتحول مع مرور الزمن إلى ملتقى للأدباء والفنانين والمفكرين، ثم إلى فضاء يجتمع فيه عدد من معارضي الحكم الشيوعي.

أما سبب تعلقي بهذا المقهى قبل أن أراه، فهو أن الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري كان من رواده خلال إقامته في براغ، التي بدأت بالعام 1961 واستمرت في مرحلتها الأولى سبع سنوات متواصلة، قبل أن يعود إليها في فترات لاحقة. وفي منفاه (براغ) كتب بعض أجمل قصائده وأكثرها تعبيرًا عن الحنين إلى العراق. وعندما حققت رغبتي وجلست في المقهى، غمرني مزيج من المشاعر المتناقضة. جميل أن يجد الإنسان مكانًا يلجأ إليه ويعيش فيه آمنًا مكرمًا إذا وطنه لم يوفر له ذلك، ومؤلم في الوقت نفسه أن يضطر إلى مغادرة وطنه، وأن يشعر بأن الأمان الذي وجده في الغربة جعله بعيدًا عن أرضه وجذوره وذكرياته.

كتب الجواهري في براغ بعض أروع شعره، لكن أجمل ما أبدعه بعيدًا عن العراق لم يكن احتفاءً بالغربة، بل تعبيرًا عن ألم الفقد والاقتلاع والحنين إلى الوطن.

وتُعرض في المقهى صورة للجواهري بقبعته المميزة، إلى جانب صور عدد من الأدباء والمفكرين والفنانين والسياسيين الذين ارتبطت أسماؤهم بالمكان، فقد كان "سلافيا" على امتداد تاريخه مقصدًا لشخصيات أدبية وفكرية تشيكية وعالمية، من بينها راينر ماريا ريلكه، وفرانز كافكا، والكاتب المسرحي والمعارض السياسي فاتسلاف هافل.

ولم يكن الجواهري شاعرًا يقف خارج التاريخ أو يراقبه من بعيد، فقد عمل مدة قصيرة في البلاط الملكي في عهد الملك فيصل الأول، ثم تركه واتجه إلى الصحافة، وأصدر عددًا من الصحف، وانتُخب نائبًا قبل أن يستقيل، وخاض معارك سياسية وفكرية، وتعرض للاعتقال والتضييق والملاحقة. وفي "وثبة يناير" بالعام 1948 فقد شقيقه جعفر، فخلده في قصيدته الشهيرة: "أتعلمُ أم أنتَ لا تعلمُ ... بأنَّ جراحَ الضحايا فمُ"

ومنذ ذلك الوقت ظل الشعر عنده مرتبطًا بالوطن والحرية والعدالة، حتى عندما أبعدته السياسة عن العراق، وأصبحت براغ إحدى أهم محطات حياته.

وليست براغ مدينة الأدب والجمال وحدهما، فقد مرت بتجارب قاسية، من الاحتلال النازي إلى خضوع تشيكوسلوفاكيا للنفوذ السوفياتي، ثم قمع "ربيع براغ" بالعام 1968، وصولًا إلى "الثورة المخملية" بالعام 1989، التي أنهت الحكم الشيوعي بأقل قدر من العنف، وكان أحد أبرز رموزها فاتسلاف هافل، الكاتب المسرحي والمعارض وأحد رواد مقهى سلافيا، الذي خرج من دائرة الملاحقة والسجن ليصبح رئيسًا للبلاد.

وهنا تشكلت أمامي مفارقة لافتة، ففي المقهى الذي جلس فيه الجواهري شاعرًا منفيًا، جلس هافل كاتبًا معارضًا، وكلاهما أثبت أن الكلمة قد تُحاصر ويُضيَّق على صاحبها، لكنها تستطيع أن تعيش أطول من السجون والأنظمة.

لم أدرِ، عندما زرت المقهى، إن كنت قد جلست على الكرسي نفسه الذي اعتاد الجواهري الجلوس عليه، لكنني شعرت بحضوره في المكان، يحتسي قهوته، وينظر إلى نهر فلتافا، بينما يعبر وجدانه المسافات إلى دجلة:

"حييتُ سفحَكِ عن بُعدٍ فحيّيني
يا دجلةَ الخيرِ يا أمَّ البساتينِ"

كان أمامه نهر فلتافا، لكنه كان يرى دجلة. وفّرت له براغ الأمان والمأوى والتقدير، لكنها لم تستطع أن تمنحه بديلًا عن وطنه. وهكذا تتحول قصيدة المبدع، حين يفقد وطنه، إلى ذاكرة لأرض يخشى عليها من الضياع.

وأمام النهر، وما تستنهضه المياه في النفس من مشاعر وذكريات، لم تستطع روعة المكان أن تبعد تفكيري عن الأخطار والتحديات التي تواجهها بلادي ومنطقة الخليج، وسط الصواريخ والمسيّرات والتهديدات والابتزاز ومحاولات تعطيل الممرات البحرية وصراعات النفوذ. وعلى رغم ثقتي الراسخة بقدرة قياداتنا وشعوبنا على مواجهة هذه التحديات، فإن مشهد براغ والجواهري يدعونا إلى التأمل في المعنى الأشمل لأمن الأوطان.

ليس المقصود أن نواجه الأخطار بالشعراء أو بالشعر وحده، فالقوة العسكرية، والتحالفات الفاعلة، والقدرة على الردع، ضرورات لا غنى عنها، لكن تجربة براغ تقول إن الأمن الحقيقي لا يكتمل بحماية الأرض والحدود فقط، وإنما يقتضي أيضًا أن يبقى الوطن بيتًا آمنًا لجميع أبنائه، وأن تقوم الدولة على المؤسسات والقانون، وأن تصبح الثقافة والفنون والكلمة الحرة جزءًا من مناعتها الوطنية.

كما ينبغي أن تُسنَد التحالفات الخارجية بجبهة داخلية متماسكة، لأن الضمانات الخارجية، مهما بلغت قوتها، لا تعوض ضعف الداخل أو انقسام المجتمع، فالحروب لا تهدم المباني والمنشآت فقط، بل تبدد الطاقات، وتهاجر بسببها العقول، ويتحول مبدعو الأوطان إلى شعراء للحنين في مقاهي الآخرين.

إن أمن الوطن لا يُقاس فقط بقدرته على صد الصواريخ وحماية الحدود، بل أيضًا بقدرته على حماية الإنسان من الخوف والمنفى، وصون هويته وثقافته وكرامته. وأحسب أن هذه هي الرسالة الأعمق التي حملتها معي من مقهى سلافيا: أن أقوى الأوطان ليس فقط ما يصعب اختراق حدوده، بل ما لا يضطر أبناؤه إلى الوقوف بعيدًا عنه، ورثائه بقصائد الحنين.

ذاكرة "صيف البحرين.. زمن الطيبين" التي لا تُنسى

"عسكريم أبو الحب".. أشهى مثلجات الخمسينات إلى الثمانينات

البلاد | حسن عبدالرسول

عربة خشبية، عصا صغيرة، حبيبات سكر ملونة، وابتسامة طفل ينتظر نصيبه من "أبو الحب".. هكذا يمكن اختصار واحدة من أجمل صور صيف البحرين في زمن الطيبين، زمن كانت فيه متعة الأطفال بسيطة، لكنها تترك أثرًا لا تمحوه السنوات.

في ذلك الزمن، كانت تفاصيل الصيف مختلفة، فقبل أن تمتلئ الأسواق بالعلامات التجارية العالمية للمثلجات، وقبل أن تتنوع نكهات "الآيس كريم" وتنتشر ثلاجات العرض الحديثة، كان لصيف البحرين مذاق آخر، مذاق تختلط فيه برودة المثلجات بحرارة الطقس، وضجيج الأسواق بأصوات الأطفال، وتفاصيل الحياة اليومية بذكريات لا تزال عالقة في وجدان أبناء جيل الخمسينات والستينات والسبعينات حتى الثمانينات.

ومن بين أشهر تلك الذكريات يطل "عسكريم أبو الحب" (آيس كريم)، الذي لم يكن مجرد مثلجات تُباع للأطفال، بل تحول مع مرور الوقت إلى علامة من علامات الصيف في البحرين، وواحد من التفاصيل الصغيرة التي صنعت ذاكرة جيل كامل.

مثلجات زمان وذاكرة المكان

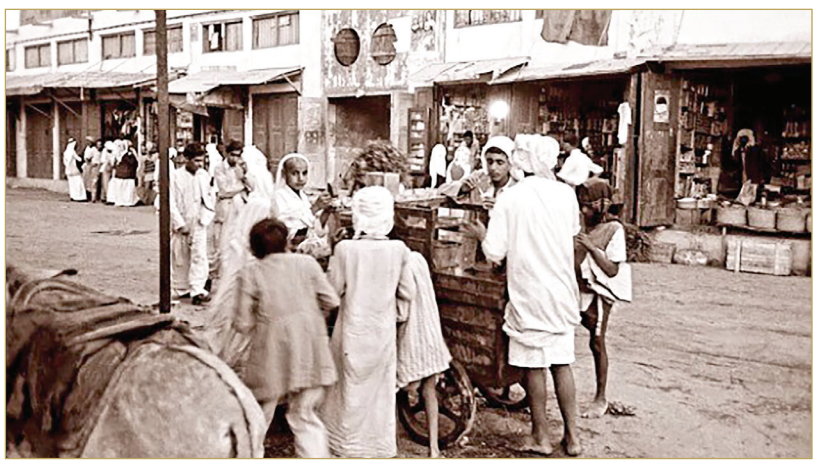

عربة مثلجة صنعت فرحة جيل

مذاق صيف البحرين في زمن الطيبين

"عسكريم أبو الحب".. صورة مولدة بالذكاء الاصطناعي

"عسكريم أبو الحب"

كان "أبو الحب" يُصنع من الحليب، ويُقدَّم على عصا خشبية صغيرة، ويُغطى بحبيبات ملونة من الحلوى السكرية، ما يمنحه مظهرًا جذابًا يلفت أنظار الأطفال قبل أن تصل أول قضمة إلى أفواههم.

وبإمكانات بسيطة، استطاع هذا النوع من المثلجات أن يحتل مكانة خاصة في قلوب الأطفال، فكانوا ينتظرون بائع "الآيس كريم" في الأسواق و "الدواعيس" والأحياء، فيما كانت العربة المتنقلة تحمل معها فرحة صغيرة تخفف وطأة حرارة الصيف.

ولم تكن قيمة "أبو الحب" في طعمه وحده، بل في المشهد الذي كان يصاحبه؛ أطفال يتجمعون حول عربة البائع، وأصوات تنادي، وحركة أسواق لا تهدأ، وذكريات أصبحت اليوم جزءًا من الحكاية الشعبية للبحرين.

صور تستعيد المشهد

وتعيد صورة تاريخية نادرة تعود إلى العام 1952 شيئًا من ذلك المشهد إلى الذاكرة، إذ يشير الباحث في التراث والمؤرخ الشعبي رجل الأعمال نبيل أجور، في منشوراته عبر حسابه على منصة "إنستغرام"، إلى صورة تظهر أحد باعة "الآيس كريم" المتجولين في سوق المنامة القديم، وهو يدفع عربته بين الأسواق و "الدواعيس"، فيما يحيط به عدد من الأطفال والمتسوقين.

وتكشف الصورة عن جانب من طبيعة الحياة في ذلك الوقت، حين كان بائع المثلجات المتجول جزءًا مألوفًا من المشهد اليومي في الأسواق والأحياء، وكان الأطفال يجدون في وصول عربته مناسبة للفرح والانتظار.

نصيف وصادق

ومن بين الأسماء التي ارتبطت ببيع "الآيس كريم" في تلك الفترة، يبرز اسم نصيف، الذي عُرف بهذه المهنة وأصبح اسمًا مألوفًا لدى أبناء المنامة، إلى جانب البائع صادق.

ولم يقتصر إعداد المثلجات على الباعة المتجولين، إذ كانت بعض الأسر البحرينية تصنع "الآيس كريم" في المنازل باستخدام الثلج والحليب والملونات الطبيعية، ثم تعرضه للبيع في الأسواق، في صورة تعكس اعتماد المجتمع آنذاك على الإمكانات المتاحة والبسيطة في تلبية احتياجاته.

دكان "الفريج" و "الدومنة"

وفي أحياء البحرين القديمة، لم تكن المثلجات بعيدة عن الدكاكين الشعبية التي كانت تشكل أكثر من مجرد محال للبيع والشراء، فقد كانت جزءًا من الحياة الاجتماعية اليومية، وملتقى لأهالي "الفريج".

ويتذكر أبناء عائلة السعيد دكان والدهم الحاج ميرزا السعيد في منطقة البلاد القديم، الذي يعود إلى العام 1951، إذ كان الدكان يبيع "عسكريم أبو الحب" إلى جانب الفُشار و "شعر البنات" و "النخي" و "الباجلة".

لكن الدكان لم يكن مكانًا لشراء المأكولات الشعبية فقط، بل كان ملتقى للأهالي ومحبي ألعاب "الدومنة" و "الدامة" و "الكيرم"، وكانت الحركة تبدأ بعد العصر وتستمر حتى نحو الساعة العاشرة ليلًا، في مشهد يجسد بساطة الحياة ودفء العلاقات الاجتماعية التي كانت تجمع أبناء "الفريج".

وكان "الدكان"، بمعنى آخر، مساحة يلتقي فيها الأطفال والكبار، يشتري الصغار "آيس كريم أبو الحب"، بينما ينشغل الكبار بالأحاديث وألعاب "الدومنة" و "الدامة"، فتتشكل من هذه التفاصيل اليومية صورة اجتماعية متكاملة لبحرين الأمس.

سوق الحمير

وتكشف الصور والذكريات القديمة أيضًا عن جانب آخر من الحياة التجارية والاجتماعية في تلك المرحلة، من خلال دكاكين "ماجلة البيت"، التي كانت توفر للأهالي احتياجاتهم الأساسية، مثل الأرز والسكر والشاي والبقول وغيرها من المواد الغذائية.

وفي الجهة المقابلة، كان "سوق الحمير" يؤدي دورًا في نقل المشتريات إلى المنازل، من خلال عربات تجرها الحمير، قبل أن تبدأ هذه المهنة في الاختفاء تدريجيًا مع دخول سيارات "البيك أب" وانتشار وسائل النقل الحديثة.

وهكذا، لم تكن عربة "آيس كريم أبو الحب" مشهدًا منفصلًا عن الحياة اليومية، بل كانت جزءًا من منظومة اجتماعية واقتصادية متكاملة: الأسواق، والدكاكين، والعربات، وألعاب "الفرجان"، والباعة المتجولون، والأطفال الذين يبحثون عن لحظة فرح وسط صيف البحرين الحار.

"أبو الحب" من جديد

بعد مرور عقود، تغيرت الأسواق وتبدلت الأذواق، واختفى كثير من المهن والمشاهد التي كانت مألوفة في أحياء البحرين القديمة، إلا أن بعض الذكريات بقيت عصية على النسيان.

ويبقى "عسكريم أبو الحب" واحدًا من تلك التفاصيل التي تستعيدها الذاكرة كلما عاد الحديث عن "زمن الطيبين" وصيف البحرين القديم.

فهل يمكن أن يعود "أبو الحب" إلى الأسواق من جديد، ولو بوصفه منتجًا تراثيًا يستعيد به البحرينيون طعم طفولتهم؟

ربما تكون عودة "أبو الحب" أكثر من مجرد عودة لمثلجات قديمة؛ إنها عودة إلى جزء من الذاكرة الشعبية، إلى عربة كانت تجوب "الدواعيس"، وإلى دكان صغير يجتمع حوله أبناء "الفريج"، وإلى صيف كانت فيه السعادة تُشترى بعيدان مثلجة وحبيبات سكر ملونة.

ذلك هو "آيس كريم أبو الحب".. مثلجة صغيرة، لكنها تحمل في ذاكرتها حكاية صيف بحريني كامل.